الأساليب البديعية في شعر ابن هانئ الأندلسي

الباحث منير عبيد نجم

كلية التربية الأساسية/ جامعة بابل

munir.aljobory@alyohoo.com

Rhetorical Devices in the Poetry of Ibn Hani Al-Andalusi

Muneer Ubaid Najm

College of Basic Education / University of Babylon

Abstract

1. The reasons for the implication of the Quran texts in his poetry are not religious only but he may resort to them for subjective considerations represented by two main reasons; to add holiness to his Ismaili doctrine and legalize it in the people's mind; then to get benefit from the one he praised – the caliph.

2. The desire to gain as much as possible of the gifts and prizes due to the psychology of the caliphs, princes, and leaders so Ibn Hani's verse is full of exaggeration to reveal the generosity and bravery of the one he praises.

الخلاصة

1. ان من بواعث حضور المعالم القرآنية وأثرها الكبير في شعره لاتتمثل بالغاية الدينية فحسب بل قد يلجئ اليها لاعتبارات ذاتية وكوامن نفسية تتمثل في سببين اساسيين احدهما اضفاء القداسة لعقيدته الاسماعيلية وتكريس شرعيتها في اذهان الناس والثاني المنفعة في القربى من الممدوح –الخليفة–وانتهاز المواقف التي تقربه اليه0

2. ان الرغبة في استدرار اعظم قدر ممكن من العطايا والهبات وخاصة اذا ما عرفنا ان التحليل النفسي المتاح لشخصيات الخلفاء والامراء والقادة تساعدنا على فهم هذه الاشكالية فالعطايا غالبا ما تكون قدر امكانية الشاعر في اظهار صفات الممدوح وكسب رضاه لذا نجد شعر ابن هانئ الاندلسي يطفح بالغلو في اظهار كرم وشجاعة ممدوحه.

أولاً – الاقتباس والتضمين:

وهو ضرب من الصناعة البلاغية البديعية التي يعنى بها الشاعر والناثر على حد سواء[1]، ويعني أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف لا على أنه منه[2]، فمن البدهي أن الدين يعد الركيزة الأساسية في فكر الإنسان خاصة إذا كان الإنسان يعيش ضمن مجتمع غالبيته يدين بالإسلام وقد أجمع المؤرخون على أن القرآن الكريم قد تصدر حلقات الدروس التعليمية عند أهل الأندلس حتى جعلوه الرافد الأول والأهم في تعليم أبنائهم[3].

لذا حرص الشعراء الأندلسيون على الاقتباس والتضمين من آي الذكر الحكيم وتدوينه في أشعارهم ؛لأن النصوص الدينية لها الأفضلية على أي نص بشري لاسيما إذا عرفنا أن النص البشري يعتريه الضعف، لأن البلاغة البشرية ليست على وتيرة واحدة، على النقيض من النص القرآني الذي يتسم بأسلوبه المتميز وبلاغته العالية، فهو وإن أوجز كان كافياً وإن أكثر كان مذكراً وإن أومأ كان مقنعاً[4]، فقد حوت لغته كل صفات الجمال والتأثير وطغى إشعاعه النفسي والعقلي والفني على كل أساليب التعبير[5]،فأضحت ألفاظه ناطقة وموحية.

ومن جهة أخرى فإن النص الديني عندما يذكر في النص الشعري فسوف يشرب هذا النص نوعاً من الألفة لما للنص الديني من القرب من نفسية المتلقي[6].

(1) ينظر: معجم آيات الاقتباس: 8-9.
(2) ينظر: الإيضاح: 575/1.
(3) ينظر: مقدمة ابن خلدون: 538.
(4) ينظر: زهرة الآداب وثمرة الألباب: 140/1.
(5) ينظر: أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي (رسالة ماجستير): 9.
(6) ينظر: شعر أبي عبد الله بن الحداد الأندلسي – دراسة فنية – (رسالة ماجستير): 15.

وقد كان ابن هانئ الاندلسي أحد الشعراء الأندلسيين الذين استلهموا من نبع القرآن الكريم إذ تنفس شعره بالعطر الإلهي وانطبعت آثاره وبصماته على معظم أغراضه الشعرية، فبات الشاعر يتنقل بين رياض القرآن الكريم الرحبة متأثراً بنماذجه الفنية لغةً وتركيباً وذوقاً، لهذا كان القرآن الكريم بالنسبة لشاعرنا منبعاً ثراً يستقي من فيض أقباسه النورانية ويجعلها أساساً في بناء أشعاره؛ إيماناً منه بما تحدثه هذه الألفاظ القرآنية من تأثير واضح في نفسية الإنسان الأندلسي المسلم، ولعل الثقافة الدينية الواسعة التي ألمّ بها ابن هانئ الأندلسي في شبابه حين درس القرآن الكريم وعلومه وأجاد في حفظه نفعه في مستقبله الأدبي، إذ صبغ أسلوبه بصبغة القرآن الكريم حتى كان فيما بعد المجيد في الاقتباس من الذكر الحكيم[1].

لقد استلهم ابن هانئ الأندلسي النص القرآني وعمل على توظيفه في داخل المتن الشعري بما يتناسب وموضوع قصيدته فقد جاء استلهامه للنص القرآني على مستويات ثلاثة.

أولاً – المستوى الأول

المحافظة على الشكل البنائي للنص القرآني، دلالة ومضموناً، فكان نقلاً مباشراً إذ حافظة البنية القرآنية الداخلة في النص الشعري على دلالتها دونما تغيير كقوله [2]:

فلا تسألاني عن زماني الذي خلا فو العصرِ أني قبل يحيى لفي خسرِ

.....

فيا ابن عليٍّ ما مدحتُكَ جاهِلاً فأنك لم تعدلْ بشفعٍ ولا وترِ

وهي صورة استلهمت معطياتها من قول الله تعالى[3] **﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾** وقوله تعالى[4] **﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾** وليس ثمة مسوغ لهذا الغلو في تقديس الممدوح إلا المنفعة في القربى منه وانتهاز المواقف، فلابد أن يتميز الشاعر في أداته وابتكاره في صيغته ليتقدم على غيره من الشعراء مستثمراً معطيات الآيتين الكريمتين للوصول إلى مبتغاه.

وقوله [5]:

لعمري لقد أُيِّدتَ يوم الوغى به كما أُيِّدت كفاكَ بالأنملِ العشرِ

لذلك ناجى الله موسى نبيُّه فنادى: أن شرح ما يضيقُ به صدري

وهي صورة مستقاة من قوله تعالى[6] **﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾**.

فكانت هذه الصورة بمثابة الخلفية لتلك الصورة، وكما أن موسى عليه السلام ناجى ربه أن يجعل أخاه هارون وزيراً يعاضده ويناصره في دعواه، كذلك اتخذ أمير الزاب من جوهر الفاطمي سنداً له يكفيه أعداءه في ساحة القتال.

وقوله [7]:

ولك الجواري المنشآتُ مواخرا تجري بأمركَ والرّياحُ رخاءُ

والحاملاتُ وكلها محمولةٌ والنَّاتجاتُ وكلها عَذراءُ

والأعوجياتُ التي إن سُوبقت سَبَقتَ وجريُ المذكياتِ غِلاءُ

---

(1) ينظر: الادب الاندلسي التطور والتجديد:423.
(2) الديوان:250.
(3) سورة العصر: آية 1 -2.
(4) سورة الفجر: آية 1-3.
(5) الديوان: 254
(6) سورة طه: آية 25-31.
(7) الديوان:37-38

الطَّائراتُ السَّابحاتُ السّابقا ت الناجيات إذا استنحثَ نجاءُ

...

أعززتَ دين الله يابنَ نبيّهِ فاليومَ فيهِ تخمُطٌ وإباءُ

إن قراءة سريعة لهذه الأبيات توضح لنا كثرة اعتماد ابن هانئ الأندلسي للأخذ من القرآن الكريم والاقتباس من آياته وسوره بصورة مباشرة فقوله (ولك الجواري المنشآت إلى قوله الطائرات السابحات) تعطي انطباعاً أكيداً على الاعتماد على ما جاء في الذكر الحكيم من سورة الرحمن[1] **﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾**

وقوله تعالى[2] **﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾** ليؤلف منها صورة شعرية ذات طابع قرآني يهدف من ورائه شدّ السامع واثارته.

وفي صورة أخرى يتأثر ابن هانئ بما كان يشعر به النبي داوود عليه السلام من الذنب والرغبة الصادقة في طلب التوبة والمغفرة، موظفاً قوله تعالى[3] **﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾** ويجعل من هذا النص القرآني معادلاً موضوعياً لموقفه أمام جعفر بن علي بعد أن يصفه بالكرم والشجاعة والمقدرة على تسيير الأمور، وهو ما جعل الإمام الفاطمي يسد به الثغور مثلما استعان النبي ﷺ بالأنصار ليهزم الأحزاب المجتمعة في معركة الخندق والأنصار يمانيون والممدوح من ملوكهم، وإن الشاعر قد أذنب – دون قصد – في إرجاع نسبه إلى غيرهم، مثله مثل داوود عليه السلام في هذا الموقف، ولائموه مثل الخصمين الذين تسورا المحراب عليه، وها هو تائب بتوبة داوود عليه السلام[4]، يقول [5]:

سَدَّ الأمام بكَ الثغورَ وقبلهُ هزمَ النبيُّ بقومكَ الأحزابا

أنتم ذوو التيجانِ من يمنٍ إذا عُدَّ الشريفُ أرومةً ونِصابا

.....

هبني كذي المحراب فيك ولُوَّمي كالخصمِ حينَ تسوّروا المحرابا

فأنا المنيبُ وفيه أعظمُ أسوةٍ قد خرَّ قبلي راكعاً وأنابا

ولقصة نبي الله سليمان بن داوود عليه السلام وافتتانه بعرض الخيول الضامرة السريعة حتى غربت الشمس وغفل عن الصلاة في قوله تعالى[6] **﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾**،استحضار في مدح الشاعر للمعز الفاطمي فيذكر في ركوبه في بعض الأعياد إذ يصف الخيل ذات الحوافر المخضبة بالدم الأحمر مما وطئته في جماجم الأعداء المفلقة بأنها تمرق في جريها – لتحقيق النصر – أسهماً على الخارجين على الدين والممدوح قد اختارهن لحب سليمان عليه السلام للضمر الأصيلات منهن ولكنه، لو رأى ما رأى الممدوح منهن في هذه الواقعة حين تتوارى الشمس خلف حجاب الظلام لم يقل ردوها عليَّ ولا يضرب سوقها وأعناقها[7]. يقول [1]:

(1) سورة الرحمن: آية 24.
(2) سورة النازعات: آية 4.
(3) سورة ص: آية 21-25.
(4) ينظر:القصص القرآني في الشعر الاندلسي:148
(5) الديوان:235-237
(6) سورة ص: آية 30-33.
(7) ينظر:القصص القرآني في الشعر الاندلسي:150.

وتراها حُمر السنابكِ مما وطِئت في الجماجمِ الأفلاقِ
اللَّواتي مَرقنَ من أضلُعِ النَّصـ ر،له أسهُماً على المُرّاقِ
أنت أصفيتهنَّ حُبَ سليما ن قديماً للصّافناتِ العتاقِ
لو رأى ما رأيتَ منها إلى أن تتوارى شمسٌ بسجفِ الغَساقِ
لم يقلْ ردَّها عليَّ ولا يطـ فقُ مسحاً بالسُّوقِ والأعناقِ

فاستلهمت هذه الصورة معطياتها من تلك الآية القرآنية الآنفة الذكر.

وهكذا نجد ان الشاعر قد استطاع عبر هذا المستوى من نقل جوهر الحدث القرآني في النص المقدس بجزئياته الى ساحته الشعرية، فنتج عن ذلك علاقة تربط النص القرآني بما يريد الشاعر التعبير عنه، من دون ان يتدخل في هذا النقل سوى الربط بينهما ببعض الروابط اللغوية.

ثانياً – المستوى الثاني

عمد فيه ابن هانئ الأندلسي إلى تكنيك آخر عبر اتكاء النص الشعري على النص القرآني من غير المحافظة على البنية التعبيرية القرآنية فيتواصل النصان ويذوب أحدهما في الاخر دون أن تختفي المعالم الدلالية للنص القرآني(2)، ويتطلب ذلك القيام بعملية تحويرية للنص والخطاب القرآني على المستويات كافة، لفظاً ودلالةً، حذفاً وتوليداً، تكثيفاً وتوسيعاً، فيرسم صوراً على غرار الآيات القرآنية مع اختلاف في الرؤية والمغزى، يظهر ذلك جلياً في قوله (3):

وما الناس إلا ظاعنٌ ومودعٌ وثاوٍ، قرين الجفنِ يبكي لراحلِ
نساقُ من الدنيا إلى غيرِ دائمٍ ونبكي من الدنيا على غيرِ طائلِ
فما عاجلٌ نرجوهُ إلا كآجلٍ ولا أجلٌ نخشاهُ إلا كعاجلِ

إن فلسفة الحياة والموت تبدو ظاهرة جلية للجميع، ولكن صيغتها في هذه الأبيات تمتلك القوة والقدرة على زرع الزهد في الحياة ونبذ البقاء،فالدنيا غير دائمة على حال والبكاء عليها أصبح من غير فائدة، والعاجل كالآجل وما نخشاه، ونحذره لابد أن يقع، مستقياً ذلك كله من قوله تعالى(4) **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آَتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾**.

ونراه في موضع آخر قد عمد إلى نقل مشاعر أهل الفقيد وأحاسيسهم من التفكير بمصابهم الأليم إلى التفكير في فلسفة الحياة، وهو ما يولد في نفوسهم شيئاً من العزاء ويساعدهم في تجاوز ما ألم بهم، والظاهر أن هذه التأملات كان منشؤها ثقافة ابن هانئ الأندلسي وتأثره بمذهب الفلاسفة في الاستدلال العقلي حتى بات هادئاً رزيناً أمام المصيبة، يقول(5):

ألا كلُّ آتٍ قريبُ المدى وكلُّ حياةٍ إلى مُنتهى
وما غرَّ نفساً سوى نفسِها وعُمرُ الفتى من أماني الفتى
فأقصرُ في العينِ من لفتةٍ وأسرعُ في السمعِ من ذا ولا

(1) الديوان: 121-122.
(2) ينظر:شعر ابي الطيب المتنبي وابن هانئ الأندلسي تحليل وموازنة (اطروحة دكتوراه):48.
(3) الديوان: 365
(4) سورة الحديد: آية 22-23.
(5) الديوان:419-420.

فهذه الأبيات تبدو وكأنها ترديد لقوله تعالى[1] **﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾** وقوله تعالى[2] **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾**.

وفي هذا المستوى تبدو براعة الشاعر ومقدرته في استجداء كوامن المتلقي بحضوره الذهني في عملية رصد ظواهر الصورة الشعرية وتحليل معالمها وكشف مرجعياتها، ذلك حين تختفي صورة قرآنية وراء صورة شعرية جسد ابن هانئ بها موقفاً من المواقف الحياتية أو فكرة أراد تثبيتها والتعبير عنها فأسهمت مخيلة المتلقي في الكشف والربط بين الصورة الشعرية والصورة القرآنية باحثاً عن المورد الذي استقى منه الشاعر صورته فهو يعمد إلى المزج بين آيتين أو أكثر للوصول إلى أقصى حد ممكن من التوتر الدلالي لدى القارئ، ويظهر ذلك جلياً في قوله [3]:

أنظُر إليه وفي التحريك تسكينُ كأنما ألتقمت عنه التنانينُ

تبارك الله ما أمضى أسنَّتهُ كأنما كلُّ فكٍّ منهُ طاحونُ

كأن بيتَ سلاح في مختزنٌ مما أعدّتهُ للرُّسلِ الفراعينُ

كأنما الحملُ المشويُّ في يدهِ ذو النُّون في الماء لما عضّهُ النونُ

...

فليسَ ترويهِ أمواهُ الفراتِ ولا يقوتُه فُلكُ نوحٍ وهو مشحونُ

إذ عمد إلى مجموعة من القصص القرآنية (قصة يونس عليه السلام وقصة نوح عليه السلام) موظفاً اياهما في هجائه لأكول، مصوراً حركة فمه في الفتح والإطباق بالتقام التنانين للطعام مشبهاً أسنانه بالطواحين وجوفه ببيت السلاح الذي أعدته الفراعنة للرسل وابتلاع الطعام كابتلاع الحوت ليونس عليه السلام، وهو في شرهه هذا لن ترويه مياه الفرات ولن تقوته سفينة نوح عليه السلام وهي مشحونة بالطعام.

وفي موضع آخر يدعو للتأمل في الموت مؤكداً على أن الهدى ينبع من القلب وبه يكون التبصر والتدبر دون العين، إذ يقول[4]:

ولم أرَ كالمرءِ وهو اللبيب يرى ملءَ عينيه ما لا يُرى

وليس النواظرُ إلا القلوب وأما العيونُ ففيها العَمى

ومن ذلك قوله أيضاً [5]:

إنّا وفي آمالِ أنفُسنا طولٌ وفي أعمارنا قصرُ

لنرى بأعُيننا مصارعنا لو كانت الألبابُ تعتبرُ

ممَّا دهانا إن حاضرنا أجفانُنا والغائِبَ الفكرُ

لو كان للألبابِ ممتحنٌ ما عُدَّ منها السمعُ والبصرُ

أيُّ الحياةِ ألذُّ عيشتها من بعدِ علمي أنني بَشَرُ

إذ عمد إلى تصوير الطبيعة البشرية وما ستؤول إليه بعد حين من الزمن، فمن الأمنيات العظام التي يمني المرء فيها نفسه الى الموت الحتمي الذي يقف حائلاً بينه وبين ما تصنعه مخيلته من آمال وطموحات معللاً ذلك بالعمى الذي

(1) سورة الأنعام: آية134.
(2) سورة الرحمن: آية 26-27.
(3) الديوان: 461-462
(4) الديوان:420.
(5)المصدر نفسه:414.

أصاب الفكر دون البصر مستسقياً صورته الشعرية من قوله تعالى[1] **﴿إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾** وقوله تعالى[2] **﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.**

وقد يعمد إلى خلق جسور دلالية جديدة استناداً إلى حدث أو قصة قرآنية قاصداً الغاية النفعية التي تقربه من الممدوح فيسرد لنا سرداً وصفياً عن آباء الممدوحين كيف حموا مكة وشعابها و وهداها ورباها من جيش أبرهة الذي أخذ يصل الليل بالنهار ليصل إليها فشاغلوا عنه الفيل بالطعن المزدوج، ومنعوه من الوصول إليها[3]. قال [4]:

حاصروا مكَّةَ في صُيَّابةٍ عقدوا خيرَ حُبَى في خيرِ نادْ
فلهم ما إنجابَ عنهُ فجرُها من قليبٍ أو مصادٍ أو مرادْ
أو شعابٍ، أو هضابٍ أو ربىً أو بطاحٍ أو نجادٍ أو وِهادْ
في حريمِ الله إذ يحمونهُ بالعوالي السُّمرِ والبيضِ الحِدادْ
ضاربوا إبرهةً من دونهِ بعدما لفَّ بياضاً بسوادْ
شغلُوا الفيلَ عليهِ في الوغى بتُوامِ الطَّعنِ في الخطوِ الفُرادِ

فاستلهمت هذه الصورة معطياتها من سورة الفيل ليجعلها خلفية لصورته الشعرية، مع ايجاد شكل من التمازج بينهما عبر اسلوب التجاور داخل المشهد الشعري.

ثالثاً–المستوى الثالث

وتتجلى فيه مقدرة ابن هانئ الأندلسي على توظيف الأثر القرآني وفق سياقات تكتظ فيها المقدرة الإبداعية بالمرجعية الدينية، بما يثري عمله الجديد معلناً عن ميلاد رؤية جديدة حية معتمداً على تكنيك الإشارة والتلميح [5]،كاشفا بذلك عن قوة الآصرة التي تشدّه الى تراثه الديني وعظيم استلهامه لألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، يقول [6]:

وحدودُ تعمير المعمَّرِ أن يسمو صُعوداً ثم ينحدرُ

فالصياغة القرآنية التي يحيل اليها النص الشعري هي قوله تعالى[7] **﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مَن ضَعفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعدِ ضَعفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعدِ قُوةٍ ضَعفاً وشَيبَةً يَخلُقُ مَا يشَآءُ وهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ﴾**، وفي موضع آخر نجده يعمد الى إذابة النص القرآني داخل الجسد الشعري بصورة قد تخفى على المتلقي كما في قوله [8] واصفاً المعز الفاطمي:

كأنما في كفِّه للورى مفاتحُ الآجالِ والرِّزقِ

فقد جعل من المعز الفاطمي سيد الخلق بيده الآجال والأرزاق **إشارة** إلى قوله تعالى[9]**﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.**

ويتم احياناً استدعاء النص القرآني بوساطة الفاظ تعمل على فسح المجال أمام النص القرآني ليبرز في الخطاب الشعري ولكن بطريقة غير بينة كما في قوله أيضاً[1]:

(1) سورة الحج: آية 46.
(2) سورة الأعراف: آية 179.
(3) ينظر القصص القرآني في الشعر الاندلسي:256.
(4) الديوان:352.
(5) ينظر شعر ابي الطيب المتنبي و ابن هانئ الأندلسي تحليل وموازنة(اطروحة دكتوراه):48.
(6) الديوان:419.
(7) سورة الروم:آية 54.
(8) الديوان: 288.
(9) سورة الانعام: آية 59.

حياةٌ ورزقُ العالمين بأسْرِهم لكل امرئ منهم نصيبٌ مُوَفَّرُ

فلفظتا (حياة،رزق) تحيل الى قوله تعالى:[2]**﴿وَفِي السماءِ رِزْقُكُم** وَمَا تُوعَدُون **﴾**

وقوله[3]:

فَمُلِّيتَه والاجْرُ مُتَّصلٌ به شُهوراً واعواماً عليكَ تكَرَّرُ

فمجريات الأمور التي أصابت ممدوحه دفعت الشاعر إلى استحضار حالة مماثلة نجد صداها في قوله تعالى:[4]**﴿إن يَمسسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وَتِلكَ الأيَامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاسِ﴾**.

ونستطيع أن نلحظ مدى الثقافة الدينية التي تمتع بها ابن هانئ الأندلسي، وكيف استطاع –**عبر أسلوب التلميح**– ان يكسب تجربته الأنسانية بعداً واقعياً، لاسيما في عقد موازنة بين حالة واقعية معيشة تتمثل في فعل الممدوح/ المعز الفاطمي وحالة سابقة اختزلة مكانها في أذهان الناس تتمثل بقصة يأجوج ومأجوج في قوله[5]:

يريقُ عليها اللؤلؤ الرَّطب ماءهُ ويسبكُ فيها ذائب التِّبر سابكُ

ثانياً – المبالغة

المبالغة في اللغة: مصدر الفعل (بالغ) جاء في اللسان بالغ يبالغ مبالغة وبلاغاً إذا اجتهد في الأمر والمبالغة أن تبلغ في الأمر جهدك[6] والمبالغة في الشيء الاجتهاد فيه والاستقصاء والمغالاة[7].

وفي إصطلاح البلاغيين أحد فنون علم البديع فهي صنف من المحسنات البديعية وقد عرّفها أبو هلال العسكري في كتاب (الصناعّين) "أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته ولا تقتصر في العبارة عن أدنى منازله وأقرب مراتبه"[8] وعرفها ابن رشيق القيرواني فقال "فمن أحسن المبالغة وأغربها التقصي وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء"[9].

وللمبالغة مستويات فنية جمالية ثلاثة هي مبالغة التبليغ: هو أن يكون الوصف ممكناً عقلاً وعادة أي ليس مستحيلاً[10].

ومبالغة الاغراق: أن يكون الوصف مقبولاً عقلاً لاعادة أي ليس مستحيلاً ولكنه لا يقع خارجاً[11].

ومبالغة الغلو: أن يكون الوصف مستحيلاً عقلاً وعادةً أي إن حصوله على خلاف السنن الطبيعية[12]،وهذا النوع من المبالغة يركن إليها الكثير من الشعراء يستعملون في مدحهم وفي هجوهم فقد لفَّتْ ظاهرة الغلو معظم الشعر العربي وشملت شعر الأندلسيين والمغاربة والمشارقة على حد سواء وقد أطلت بوادرها في شعر أبي تمام، ثم تجلت بارزة في مدائح المتنبي ولم يكن ابن هانئ في ذلك بدعاً بين شعراء عصره[13].

---

(1) الديوان:478.

(2) سورة الذاريات: آية 22.

(3) الديوان:476.

(4) سورة آل عمران:آية140.

(5) الديوان:125.

(6) ينظر: لسان العرب مادة (بلغ).

(7) ينظر: المعجم الوسيط: 69/1.

(8) ينظر: الصناعين: 87.

(9) العمدة: 97/1.

(10) ينظر: التلخيص: 95.

(11) ينظر: التلخيص: 666.

(12) ينظر: المصدر نفسه: 95.

(13) ينظر: ملامح الشعر الأندلسي: 88-89.

فالمتفحص لديوان ابن هانئ الأندلسي يجده يطفح بالعديد من الشواهد التي تقع ضمن النوع الثالث من أنواع المبالغات، ولعل ذلك يرجع إلى سببين يتمثل الأول منهما في اشتراطات الخيار العقائدي للشاعر التي تؤكد انتماءه للمذهب الإسماعيلي الذي يمتاز بمجموعة من الخصائص تتيح للشاعر فهماً خاصاً واستثنائياً للعلاقة بين الإمام والمريد، وقد أفرز هذا السبب الغلو في تقديس الممدوح، أما السبب الثاني فهو شخصي تكرسه ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية وطبيعة الظروف التي عاشها ابن هانئ الأندلسي والتي طبعته بخصائص متعددة من بينها التودد والتقرب للأقوى من أجل الحصول على بعض المكاسب المادية، لقد ترشح عن هذا السبب الغلو في وصف الممدوح بالكرم والشجاعة لذا فأن الدارس لمجمل مبالغات ابن هانئ الأندلسي يمكن أن يقسمها على ثلاثة محاور:

1-**الغلو في تقديس الممدوح:** لقد جاءت هذه المبالغة نتاجاً للسبب الأول فمن المعروف أن ابن هانئ الأندلسي كان شاعراً عقائدياً يتفجر إيماناً بعاطفة فواره لا تعرف الاعتدال ولا الحدود، فهو يندفع وراء ممدوحه بهوى يكاد يبلغ الهوس[1] مشيراً إلى أوحديته بين أقرانه وتفرده عنهم بصفات فريدة ذات بعد إلهي خاص بالله تعالى فالله خالق للوجود مسبغ للنعم ومسدد للمؤمنين، وهذه الصفات يجعلها ابن هانئ لممدوحيه بوصفهم خلفاء الله في أرضه وأُمناءه على خلقه، وقد حلل أحمد أمين هذا الاندفاع وراء المبالغات والغلو المفرط في تنزيه الإمام ورده إلى صميم العقيدة الشيعية فقال "أما الإمام في نظر الشيعة ففوق أن يحكم عليه، وهو فوق الناس في طبيعته وتصرفاته، وهو مشرّع، وهو منفذ، ولا يسأل عمّا يفعل والخير والشر يُقاس به، فما عمله فهو الخير، وما نهى عنه فشر، وهو قائد روحي وله سلطة روحية تفوق حتى سلطة البابا في الكنيسة الكاثوليكية، فالصلاة والصيام والزكاة والحج لا تنفع إلا بالإيمان به، كما لا تنفع أعمال الكافرين بغير إيمان بالله ورسوله":[2].

ومن هذا التحليل للعقيدة الشيعية نفهم أن ابن هانئ لم يكن في مدحه للمعز منافقاً أو متزلفاً ولا مدفوعاً بالطمع في العطاء،بقدر ما كان مدفوعاً بوازع ديني وحماسة مذهبية طاغية.

وقد بلغ ابن هانئ نهاية قدرته الشعرية في تنزيه المعز وإجلاله، يقول [3]:

ما شئتَ لا ما شَاءت الأقدارُ فاحكم فأنتَ الواحدُ القهارُ

وكأنما أنت النبيُّ محمدٌ وكأنما أنصارَكَ الأنصارُ

وابن هانئ لا يكتفي بهذه المبالغات المتناهية بل يزيد فوقها فيعدُّ إيمان الناس لا ينجيهم وإنما الخليفة في نظره هو سبب النجاة الوحيد لهم، يقول [4]:

لو لم تكن سبب النَّجاة لأهلها لم يُغنِ إيمان العبادِ فتيلا

إذ يرى ابن هانئ أن مدح الخليفة المعز واجب ديني تماماً كالصلاة والصوم فالعقيدة الشيعية تفرض على صاحبها تمجيد الإمام وتقديسه وإجلاله مع طاعته وشكره يقول الشاعر مصوراً لنا هذه العقيدة [5]:

فرضان من صومٍ وشُكر خليفةٍ هذا بهذا عندنا مقرونُ

لك حمدُنا لا أنّه لك مفخرٌ ما قدرُك المنشور والموزونُ

وفي قوله مادحاً المعز الفاطمي، يذكر عيد النحر، يقول [6]:

أبني النّبُوّةِ! هل نُبادِرُ غايةً ونَقُولُ فيكم غيرَ ما قد قِيلا؟

(1) ينظر: ملامح الشعر الاتدلسي: 89.
(2) ظهر الإسلام: 221/3.
(3) الديوان: 101.
(4) المصدر نفسه: 155.
(5) الديوان: 211.
(6) المصدر نفسه: 152-153.

إن الخبيرَ بكم أجَدّ بخُلقكم غيباً فجرَّد فيكم التنزيلا

آتاكم القُدسَ الذي لم يؤتِه بَشَرَا وأنفَذ فيكم التَّفضيلا

إنّا استَلمنا رُكنكم ودَنوتُمُ حتى استَلَمتمْ عَرشَه المحمولا

فهو يسأل مخاطباً ممدوحيه بأهل بيت النبي بأن ليس ثمة جدوى من أن نختار غير ما اختاره الله وقرره لكم، فهو الخبير بحالكم وهو الذي اختصكم بكل العطاء الذي لا سبيل أن ينازعكم فيه أحد، والمثبت في قلب التنزيل المقدس وهذه المبالغة الواضحة نتاج واضح للخيار العقائدي الذي أسهم في تكوين ذهنية الشاعر، وهو ما دفعه للتصريح بأن الله عز وجل هو الذي خصّ الممدوح بثمار القدسية التي لم يذقها أي بشر، لأنه قد قدّرها لكم وهو أمرٌ مثبت في النصوص حتى اصبحتم الوسيلة والواسطة إلى الله عز وجل، وهذه ولا شك مبالغة أضفت قدراً كبيراً من القدسية على الممدوح، وهو الأمر الذي قد ينظر إليه الباحثون بطرق مختلفة انطلاقاً من توجهاتهم الثقافية والعقائدية.

إن المبالغة في إضفاء المقدس على الممدوح قد تفيد أمراً يمكن تشخيصه بسهولة الا وهو الإشارة إلى البعد العام للمنطوق العقائدي عن طريق معادلة مركبة تتمثل في جعل البعد الشخصي الخاص منطلقاً لتوليد أفكار عامة تتعلق بالمنظومة الاجتماعية التي كان لها خيار عقائدي محدد،ففي هذه المقطوعة التي هي جزء من قصيدة قالها ابن هانئ في مدح المعز الفاطمي في القيروان نصادف مبالغة واضحة لا تخطئها العين، يقول [1]:

هذا مَعَدٌّ والخلائقُ كُلُّها هذا المعزُّ متّوجاً والدينُ

هذا ضميرُ النّشأةِ الأولَى التي بَدَأَ الإلهُ وغيبُها المكنونُ

من أجل هذا قُدّر المقدور في أم الكتابِ وكوّنَ التكوينُ

وبذا تلقَّى آدمٌ من ربّه عفواً وفاء ليُونُس اليَقطينُ

يا أرضُ: كيف حملتِ ثني نجاده والنصرُ أعَظمُ منكِ والتّمكينُ

فالمعز بين كل الخلائق طاهرٌ وجليٌ ومتوج، لأنه ضمير النشأة الأولى وعلتها التي بدأ بها الله عز وجل الخلق، لكونها العلة الأولى ومصدر كل العلل اللاحقة وهذا الأمر غير متروك للصدفة فالشاعر يمضي في مبالغته فيقرر أن القدر والتكوين المكنونين في أم الكتاب لهما غاية واحدة هي إظهار ألق المعز وقدسيته وكنهه وللتدليل على هذا الأمر يصرح الشاعر بأن نجاة آدم ونوح مرهون بشيء من قدسية المعز الفاطمي، وهذه المبالغة تشير بوضوح إلى رغبة دقيقة عند الشاعر لإطلاق العنان لمكنونه العقائدي، وتكريس فكرة ما توفر له شرعية ومناخ بيئة عرفت شيئاً من التنافس بين مختلف المقولات الاجتماعية أو الثقافية.

2 – الغلو في إضفاء صفة الكرم

وقد تكون المبالغة التي تبغي إظهار صورة شديدة الاحتفاء بشخص ما وسيلة لتسويغ أمرين جوهريين يتمثل الأول منهما في إفهام المتلقي بأن الممدوح مستحق لما يقال عنه ومن ثم توفير شيئاً من الطمأنينة النفسية للشاعر بأنه إنما يكون أقرب إلى الحقيقة في إظهار هذه الصفات، ولعلنا نصادف مثل هذا الأمر في الكثير من المدائح التي تهدف للحصول على عطايا الممدوحين، أما الأمر الثاني فهو تكريس تلك الخصائص ومن ثم اقناع المخاطب بمجموعة من الحقائق التي تعينه على التعاطي مع الحالة الشعرية بطريقة تضمن للشاعر منزلة يكاد يفتقدها لكثرة إدمانه لطرق باب السؤال، ففي قول ابن هانئ [2]:

فللمجدِ ما أبقى وللجودِ ما اقتَنى وللناسِ ما أبدى ولله ما أخفى

(1) الديوان: 205-206.
(2) الديوان: 275.

يغولُ ظُنونَ المُزنِ والمُزنُ وافرٌ ويُغرقُ موجَ البحَرِ والبحَرِ قد شَفَّا

فلو أنَّني شَبَّهْتُهُ البحَر زاخِراً خَشِيتُ يكون المَدحِ في مثلهِ قَذْفا

وما تَعْدِلُ الأنواءُ صُغرى بَنانهِ فكيف بشيءٍ يَعْدِكَ الزّبَدَ والكَفّا

مليكُ رِقابِ الناسِ مالكُ وُدِّهم كذلك فليَسْتصْفِ قوماً من استَصفى

يسلك الشاعر طريق المبالغة في إظهار صفات الممدوح فهو يصرح بأن كل ما ملكه جعفر بن علي منذور بجود يديه التي تمطر على الناس، وكل ذلك بدون منّة أو تبجح وهذا الكرم غزيرٌ مهطال حتى أنه يفوق ما تجود به المزن التي تغدو شحيحة أمام هطوله، وتصل المبالغة إلى أقصاها عندما يصرح ابن هانئ بأن البحر نفسه يغرق أمام بحر جود الممدوح، وفي هذه الحالة فإن وصف كرم جعفر بن علي بالبحر نوع من التجني ذلك لأن سخاءه غزير إلى درجة تجعل ذلك الوصف قاصراً ومعيباً في شأنه وتكتمل الصورة الشعرية المؤطرة بمبالغة بينة في قول الشاعر بأن الأهوال وتصاريف الدهر لا تقوى على إلحاق شيء من الأذى بصغرى بنان الشاعر، فكيف إذا ما أرادت تلك التصاريف أن تصل إلى كفه الندية وزنده الضارب بالسيوف؟ فهو المالك لرقاب الناس،وهذا النوع من المبالغة كما أسلفنا يكرس صورة للممدوح تقترب من مهمة إبراز الخصائص الشخصية ومن ثم فأنها تمثل نوعاً من محاولة إفهام المتلقي بأن ذلك الممدوح مستحق لتلك الصفات.

وثمة أمرٌ آخر يتيح لنا فهم أسلوب المبالغة في إظهار كرم الممدوح وهذا الأمر يتمثل في الرغبة في استدرار أعظم قدر ممكن من العطايا والهبات وخاصة إذا ما عرفنا أن التحليل النفسي المتاح لشخصيات الخلفاء والأمراء والقادة تساعدنا على فهم هذه الإشكالية فالعطايا غالباً ما تكون على قدر إمكانية الشاعر في إظهار صفات الممدوح وكسب رضاه وإن كان على سبيل المبالغة وفي هذا المجال نورد ما قاله ابن هانئ في إظهار كرم جعفر بن علي [1]:

أعطى فأكثرَ واستقلَّ هِباتهِ فاستحْيَتِ الأنواءُ وهي هوامِلُ

فاسمُ الغمامِ لديه وهو كَنَهْورٌ آلٌ، وأسماءُ البحورِ جداولُ

لولا اتّساعُ مذاهبِ الآفاقِ ما وسِعَتْ له فيها لُهىً وفواضلُ

إن لَجَّ هذا الوَدْقُ ولم يُفِقْ عمّا أرى هذا الصَّبيرُ الوابلُ

فسينقضي طلبٌ ويُفقَدُ طالبٌ وتقِلُّ آمالٌ ويُعدَمُ آملُ

فالممدوح على الرغم من كثرة عطاياه وعظمها فإنه يستقلها لعظم شأنه ليس هو فحسب بل إن الغيوم المدرارة والرياح التي تحمل الندى وهي حوامل استحيت من غيث يديه الماطرتين، وهكذا الأمر بالنسبة للسحاب المحمل بالأمطار قد تحول قياساً إلى كرم جعفر بن علي سراباً، وتلك مبالغة لا محال تكتمل أسبابها وملامحها عندما يستطرد الشاعر ويقرر بأن البحار وكناياتها وأسماءها قد تحولت أمام جود الممدوح إلى جداول صغيرة وهذا النوع من المبالغة كما نرى منذور بالأساس للتأثير المباشر على شخص الممدوح لاستنزال أكبر قدر من عطاياه والاستزادة منها.

3 – الغلو في إضفاء صفة الشجاعة

إن الركون إلى المبالغة في إظهار شجاعة الممدوح تسعى إلى الوصول إلى غاياتٍ عدّة فبالإضافة إلى إظهار الصفات الجسدية والمهارية والذاتية للممدوح، وتكريس صورته بوصفه بطلاً يستحق المديح فإننا نجد أن هذه المبالغة قد تؤدي إلى غاية أخرى مضافة تتمثل بالاحتفاء ببيئة الممدوح ومتطلباتها الاجتماعية والثقافية والعقائدية وهذا الغرض مطروق بكثرة في الشعر العربي لاسيما في أوقات التأزم السياسي والصراع الحضاري الذي قد يمهد للشعراء مثل هذا

(1) الديوان: 302 -303 0الكنهور:السحاب المتراكم الثخين.

التصرف، ففي قول ابن هانئ مادحاً المعز الفاطمي ويقال إنها أول شعر مدحه بها[1]،نراه يغدق على المعز صورة المخطط الاستراتيجي وهذه صورة من صور المبالغة في إظهار الشجاعة إذ يقول [2]:

ونَصَرْتَ بالجيش اللُّهام وإنما أعدَدْتَهُ قبل الفُتوح فُتُوحا

أفْقٌ يمورُ الأفْقُ فيه عجاجةً بحرٌ يموج البحرُ فيه سَبُوحا

لو لم يَسرْ في رَحْب عَزمِكَ آنفًا لم يُلْفِ منْخرقَ الخَبُوتِ فسيحا

يُزجيهِ أرْوعُ لو يُدَافَعُ باسمِهِ عُلُويُّ أفلاكِ السَّماءِ أُزيحا

قادَ الخضارمةَ الملوكَ فوارساً قد كان فارسَ جَمْعها المشْبُوحا

فكأنما ملك القضاء مُقدَّرا في كل أوْبٍ والحِمامَ مُتيحا

وافى بهيبة ذي الفقار كأنما وَشَّحْتَه بنجاده ترشيحا

حتى إذا غَمر البحارُ كتائباً لو يرتشفن أُجاجَها لأميحا

فجيش المعز يسير في رحاب عزم الخليفة وتلك الرحاب المعززة بالإطار الشخصي أرحب من كل المغازات وتلك مبالغة ولا شك في إظهار شجاعة الممدوح تعززها صورة أخرى تُظهر سماحة الممدوح التي ترتقي إلى الاعالي فتزاحم زحل في موضعه حتى تكاد تزاحمه على الرغم من انه أعلى الكواكب، وهذه المبالغة إيغال في الإفتتان بشخص الممدوح ومنحه مكانة وصفات تقربه من الأسطورة التي تصوره صانعاً للمصائر فهو ممسك بزمام القضاء والقدر والحياة والموت كيف لا والممدوح مقلداً لسيف ذي الفقار ومتشح بهمته بل أن جيشه قد يأتي بالعجائب في مبالغة تستهدف إظهار الشجاعة لتراه يقبل على ماء البحر فيغترفه لكثرته وعظم شأنه وشدّته فلا يبقي منه للواردين إلا قليلاً.

وفي موضع آخر من مواقع المبالغة التي تستهدف إظهار الشجاعة، يقول الشاعر [3]:

في الله يسري جُودُهُ وجُنودُهُ وعَديدُه والعزمُ والأراءُ

أو ما ترَى دُولَ المُلوكِ تُطيعُه فكأنّها خَوَلٌ له وإماءُ

نَزَلتْ ملائكةُ السّماءِ بنَصرِه وإطاعَةُ الأصباحُ والإمساءُ

والفُلْكُ والفَلَكُ المُدارُ وسَعْدُهُ والغَزْوُ في الدأماءِ والدَّأماءُ

نرى ابن هانئ يخلع على ممدوحه صفة الشجاعة المعززة بإلهية الإلهية فهو منصور على الدوام لأنه ينفذ إرادة الخالق فنرى الملوك أمامه وقد تحولت الى عبيد ينفذون ما يريد، بل إنهم قد صاروا إلى ما يشبه الإماء وتلك مبالغة تكرس صورتين، الأولى الشجاعة الشخصية للممدوح، والثانية سمو عقيدته وقدرتها على توفير ممكنات الشجاعة له وتكتمل صورة المبالغة في أن الصباح والمساء منقادان للممدوح، كيف لا وأن ملائكة السماء هي من كشفت عن ملامح نصره ؛ ويتكرر الأمر نفسه في قوله[4]:

والشمسُ حاسرةُ القِنَاع ووُدّها لو تستطيعُ لترُبهِ تقبيلا

وعلى أمير المؤمنين غمامةٌ نَشأتْ تُظَلّلُ تاجَه تظليلا

نَهضَت بثقل الدُّرِّ ضوعف نسجُها فَجَرَتْ عليه عسجدَاً محلولا

(1) الديوان: 50.
(2) المصدر نفسه: 53-54.
(3) المصدر نفسه: 36.الخول: العبيد، الدأماء: البحر.
(4) الديوان: 146.

أمُديرَها من حيث دارَ لِشدَّ ما زاحمتَ حولَ رِكابه جبريلا

ذْعَرَت مواكبُهُ الجِبالَ فأعَلنتْ هضباتُها التكبيرَ والتهليلا

فالشمس على ما بها من رفعة وسناء تتمنى تقبيل الثرى لا لشيء إلا لكونه قد وطئه المعز بأخمصه، ويسترسل في رسم ملامح مبالغة لا تخطئها العين حتى يصل به الأمر إلى أن يجعل موكب المعز الذي يضلله صف الملائكة يقودهم جبرائيل (ع) قد أدخل الرعب والذعر على الجبال والهضاب التي بدت وكأنها تكبر وتهلل إعظاماً وإجلالاً للمعز وركبه.